

# الإنسان والمدينة في العالم المعاصر

مراجعة: محمد سليم طَبَّارَة

إليها. إذن ليس عيباً أن نرجع إلى مؤلفات غيرنا ونترجمها، ولكن العيب هو أن نكتفي بذلك دون أن نقوم نحن بعد ذلك، وبعد أن تكونت لدينا المعلومات والأفكار الواضحة، بعملية الخلق وعملية تنسيب علمنا وعملنا مع مجتمعنا.

هذا الكتاب بمقالاته يجول ويتحدث بمواضيع مختلفة لها علاقة بصورة ما بالمدينة، فهي إذن يجمع بينها قاسم مشترك واحد هو المدينة. فهناك مواضيع: كالإنسان والعمران والمال، والعملية السياسية والثورة والهندسة المعمارية، والمنطقة والسيارة، والشعر، يتطرق إليها هذا الكتاب لكونها ذات علاقة لصيقة بالمدينة.

قد تكون هذه العلاقة وما ينتج منها وعنهما سهل التصوّر عند كثير من الناس، وربما لا. إلا أن هذا الكتاب بمقالاته هو في الحقيقة محاولة ناجحة لتوضيح كل ذلك.

وقبل الانطلاق تفسيراً وتحليلاً وربما نقداً لما جاء في هذا الكتاب لا بد من الإشارة - وهذا شيء يلاحظه أي قارئ لتعريب هذا الكتاب من قبل السيد كمال خوري - إلى أن الترجمة جاءت سلسلة وكأنها تأليف، بمعنى أن

« الإنسان والمدينة في العالم المعاصر » (★) كتاب في اثنتي عشرة مقالة، وخاتمة، وهو معدّ بالفرنسية، مؤلفوه فرنسيون يدرّسون في جامعات فرنسية، قام بتعريبه كمال خوري، وتولّت نشره وزارة الثقافة والارشاد القومي السورية.

إنه بالنسبة لنا نحن العرب قد يكون كتاباً قلماً يتطرق إلى مواضيعه مؤلفونا. إنه ذو موضوع جديد يتعاطى في صياغة مدنية (من مدينة). وفي هذا، لا بد من شكر السيد كمال خوري ووزارة الثقافة السورية لاتاحتها للقارئ العربي قراءة موضوع قلماً نزل إلى سوق التأليف العربية. ولا بد من التنويه هنا أنه حينما يراد إقامة أي شيء جديد بالنسبة لصاحبه، تقوم المحاولة على استقدام خبرة من له المعرفة في ذلك، أو التطلع إلى من لديهم سابقة العمل بمثل هذا الشيء. ومعنى هذا - وضمن موضوعنا المدينة وما يتفرّع منها من فروع وما يتعلّق بها من علائق - أنه ليس عيباً أن نأخذ ونترجم ما عند غيرنا من مؤلفات ومواضيع تتعلق بالمدينة، خاصة ما عند الأوروبيين والأميركيين الذين هم - وليس عيباً أن نجهز بحقيقة قد تكون مؤلمة - أكثر تقدماً في مثل هذه المواضيع وأكثر قدماً منا في التطرّق

(★) الإنسان والمدينة في العالم المعاصر [ ١٣ مقالة في هذا الموضوع لحاضرين ومفكرين فرنسيين ] تعريب كمال خوري - دمشق - ١٩٧٧

القارئ لا يشعر مطلقاً بثقل الترجمة من لغة إلى أخرى، وهذا عمل يبنى عليه المترجم.

## ( ١ ) الانسان والمدينة

إن المدينة كالإنسان تماماً، لها وجه قد يكون محبباً أو مكروهاً ولها شخصية كشخصيته فهي قريبة إلى القلب أو بعيدة عنه .

بعض المدن كثيرة الاحتشام وبعضها كالغواني لا تستسلم إلاً بعد لقاءات طويلة، وبعضها تستسلم فوراً وبدون تحفظ، منهن ملكات ومنهن بورجوازيات صغيرات ومنهن سهلات بسيطات .

« إن الإنسان يسكن على هذه الأرض كشاعر، أي بكل كيانه، مزوداً بأحلامه وحنينه وتطلعاته، فالمدينة في هذا المجال تغمره، أي أنه يحس فيها بنفسه وكأنه مشبع بالذكريات والقصص » .

ولهذا فالإنسان حينما يبتعد عن مدينته ليسكن أخرى لوقت محدد أو غير محدد، نراه يحس بالحنين إلى مدينته الأولى التي عاش فيها مع نفسه ومع أهله وله فيها ذكريات ومشاعر .

ولهذا، وإن تعمقنا بالتفكير قليلاً، نرى - وبما أن الانسان يعيش كشاعر على هذه الأرض - كيف أنه إذا كانت أحاسيسه وبالأحرى محيطه في أرضه ومدينته وحيته غير محبة إليه بغيضة عليه، نراه كيف يترك هذا المحيط إلى آخر بحثاً عما يريحه في مشاعره وأحاسيسه . هذا إن استطاع إلى ذلك سبيلاً .

إلى ذلك، والمدن التي كانت قديماً لا تقوم ولا تنمو إلاً حسب منطق عضوي يأخذ بعين الاعتبار الاحتياجات الانسانية والسكنية البسيطة، سزاها تنمو بعد تلك الفترة وفي عصرنا، إماً في فوضى متفلنة وإماً في أحسن الحالات حسب خطط تنظم علمياً في مكاتب الخبراء والمهندسين .

وهذا ما نستطيع في الحقيقة أن نراه في عصرنا، حيث - وتلبية للتطور الصناعي السريع - نرى المدن القديمة تلحق بها، بطريقة انفلاتية غير مدروسة، أحياء هي في أغلبها فقيرة كوخية المظهر، لتأوي الوافدين إليها طلباً للعمل والرزق . كما أننا نرى، وتلبية للمطلب السابق نفسه، المدن المخططة والمبينة حديثاً وحسب منطق عقلائي، وحيث نجد هناك حياً خاصاً بالمصارف وآخر للفنادق وحيماً للمهن الحرة وحيماً للمخازن الكبرى . ولكن هذه العقلانية التجريدية أفقدت المدينة أحلى ما عندها وهي طبيعتها وعدم تصنعها، هذا التصنع المفتعل الذي إذا ما وُضع أمام الطبيعي يغسر الرهان .

وفي هذا يقول جان أونيموس في مقاله هذا: « ولكن حين التطبيق وجدوا أن المدينة المنطقية العقلانية مدينة موحشة لفقدان التكذس الغوضوي والمفرح الذي يجعل من الشارع العتيق جهازاً ملوئاً بالحياة والجاذبية ... » .

وفي مكان آخر، يقول السيد أونيموس: « وإن القوة النابذة للإجازات السنوية هي علامة لا تحظى، تدل على عدم الرضى عن الوسط الذي يعيش الناس فيه، إننا نلاحظ أن أكثر الناس حظاً وهم يتمتعون بأفخم زينات الدنيا وأهم وسائل الترف والرفاهية، هم الذين يبادرون في أول مناسبة للبحث عن لذة العيش في مكان آخر، ربما كان مدينة عتيقة ما أو مسكناً عتيقاً ما » . إنه الهرب من التصنع، من اللاطبيعة، من العقلانية غير الشاعرة .

هذه الشعيرة التي نطلبها في مدنا وهذه الطبيعة غير المتصنعة والمفتعلة، تعود إلى ريفيتنا . فنحن، وإن كنا نسكن المدن، ريفيون في أصلنا، نحن إلى قرانا وريفنا السالف .

المطلوب أن يكون الريف في المدينة . ولكن عصرنا ومنطوق تطوره لا يتقبلان ذلك أو لا يتوافقان معه، فلذلك يجب تعويد النفس على ترك هذا الحنين الريفي وشعريته، والعيش كمدنيين في المدن لا كريفين نعيش .

وسط الطبيعة الغناء .

وفي هذا يقول كاتب هذا المقال: «إن هذا التأقلم صعب وموجع وبطيء... يجب أن يأخذ الانسان على عاتقه إغناء عدم المبالاة للإطار الشعري الذي يرغب فيه وعدم البحث عن الشيء الطريف واللمسة الشخصية في المسكن وعدم الاهتمام إلا بوسائل الراحة المادية التي يقدمها هذا المسكن، وعدم التعلق بالمسكن كما لا نتعلق بسيارة أو غسالة، إن العالم العصري يشجب هذه الصداقات والأهواء الطفولية...» .

ذلك أن الحياة العصرية في حقيقة الأمر تتطلب الحركة، والحركة تتطلب التنقل والتنقل سيكون مريراً إذا ما ربط بالشعور والشعر والحنين. إن الحياة العصرية التي تسير بنا هي آلة ضخمة لا شعور لها، فهي لا تلتفت بالتالي إلى إحساس الناس وحنينهم، بل تطلب عملاً وتطلب حركة، لذلك فعلى الانسان أن يكتيف نفسه مع ذلك بدل أن يعيش في دوامة التناقض: شعريته ولا انسانية الحياة العصرية، أو إحساسه ولا إحساسية العصر الحالي .

## ( ٢ ) أزمة تنظيم العمران المعاصر

أ - مشكلة تنظيم العمران: إن التصنيع وما يتطلبه قد أدى إلى اكتظاظ المدن بالوافدين إليها من أجل العمل في المصانع والورش التي تقوم فيها أو بالقرب منها، وما انشأ فيها الضواحي والأطراف والأحياء العمالية المكتظة، والتي تمت بعشوائية وحشية غير متوافقة أو متناسبة مع النمو السلم والطبيعي للأشياء. وفي هذا يقول السيد هنري لوفيفر كاتب هذا المقال: «إن مسألة اليوم هي مسألة انفجار المدن وتشكل البقايا التي يسمونها الضواحي والأطراف» .

وفي الحقيقة، أن بعض الظواهر التي يراها كل منا في المدينة التي يعيش فيها أو التي يعرفها أو التي يزورها، يجد فيها تأكيداً لهذا القول. فالمشاهد يرى فيها مدى تأثير

عامل التصنيع عليها خاصة لجهة اكتظاظها بالوافدين الجدد إليها من أماكن بعيدة عنها بغية العمل وطلباً للرزق، وتأثير ذلك فيما بعد على نشوء الضواحي والأطراف، التي غالباً ما تكون كوخية المظهر فقيرة المحتوى فوضوية النمو، قبيحة المنظر، إنه الانفجار الذي لا بد من منعه والوسيلة هنا هي التنظيم .

ولكن تنظيم العمران يمثل عملية واسعة، عملية هائلة يجب معرفتها والسيطرة عليها ككل عملية ذات خصائص عفوية عمياء، وهنا يتهم السيد لوفيفر « خبراء تنظيم العمران بخلط المفاهيم والأنظمة وبتطبيق مفاهيم مستخلصة من التصنيع، على عملية تنظيم العمران . فهناك أنظمة ومفاهيم جديدة يجب أن تستخلص وتثبت... » . فكأن الكاتب هنا يطلب أن يكون العمران وتنظيمه كعلم يجد ذاته له مفاهيمه وخصائصه وخاصة له استقلالته تجاه غيره، فتنظيم العمران، ونظراً لما يجب أن يكون ولما يجب أن يضع من حلول، ولما يجب أن ينظر إليه ويتوجه نحوه. يتوجب أن يكون مستقلاً في مفاهيمه وأن تكون له عقلانية علمانية خاصة به .

ب - الفكر العمراني الحالي: إن علم تنظيم العمران العصري قد تكون بشكل تفكير عن السكن كوظيفة وفعل منفصلين، لا كتفكير عن الحياة العمرانية وعن التحضر. إن التفكير العمراني يتصل بالسكن أكثر مما يتصل بالحياة الحضرية، إنه أكثر ارتباطاً بمسألة المسكن لا بمسألة الحياة العمرانية النوعية .

إن الاهتمام يتجه نحو البناء السكني، وليس حول المحيط والترابط معه، وليس إلى غايات تتعدى السكن نحو أهداف أخرى إنسانية اجتماعية تعمل على الرقاء والارتقاء .

إن المبادرة الفردية في التعمير، هذا هو فكرها، كما إن العمل الجماعي خاصة الحكومي، يأخذ بالخطيط العقلاني الذي يتجه نحو اعتبار المدينة مشروعاً صناعياً، مما يفقدها نغوها الطبيعي العضوي اللطيف والمستجيب لحاجات

ساكنيها وتطورهم ومشاعرهم وأحاسيسهم .

غير أن المرغوب فيه هو بناء المدينة والمباني للسكن فقط، بدون الاهتمام للحاجات الأخرى للإنسان، كما أنه من غير المطلوب بناء المدن بطريقة عقلانية منظمة مصنعة، لأن في ذلك مساساً بأحاسيس الناس ومشاعرهم وشاعريتهم، ومساساً بما هو دائماً مستجيب لمنطق النمو الطبيعي للأشياء والمستجيب للظروف والمهاشي لنمو وتطور الانسان .

قد يكون التقدم أو الريح في هذا، هو للمبادرة الفردية ولكن المتطورة، وفي ذلك يقول السيد لوفيفر: « يجب إذن العودة إلى المبادرة الفردية ... ولكن هذا ليس حلاً صحيحاً في نظري لأن أصحاب المبادرات الفردية لا ينظرون إلا إلى السكن ... ولكن يجب الاعتراف بأن أصحاب المشاريع الفردية يحققون تقدماً وأنهم سيزدادون تقدماً في السنوات الآتية ... » .

ذلك أنه، بالرغم من كل شيء فإن أصحاب المشاريع الفردية ربما يكونون أقرب إلى تطلعات الانسان ساكن المدن، وأسرع ربما إلى مماشاة شاعريته وهم في عملهم أقرب إلى الطبيعة من المنظمات الحكومية العمرانية التي هي بدورها أقرب ما تكون تصنيعية في عملها .

جـ - الممارسة الاجتماعية في المجتمع العمراني: إن الملاحظ لحياة المجتمع الصناعي - ولناخذ مثلاً الفرنسي وبالدات الباريسي منه - يراه ينهل من ينبوع واحد ثقافياً، إلا أنه وبسبب الحياة الصناعية التي تجبر أفرادها على الحياة حياة خاصة هي أقرب إلى العزلة منها إلى التلاقي وأقرب إلى التقيد منها إلى الانطلاق، وهو مفتت فعلاً وكل فرد فيه منفلق على نفسه وأنانيتها . لماذا ؟ .. إن نط الحياة الصناعية تجبر الباريسي كما غيره من سكان المدن الصناعية على أن يذهب إلى عمله في الصباح ولا يعود منه إلا متعباً في المساء، وهو شبه نائم أو في غفوة، فلا يطلب سوى الراحة والنوم . إن الحياة عنده تتمثل في المترو والعمل والنوم .

كما أن هذا المجتمع يعطي الفردانية نصيباً كاسحاً من السيطرة في الحياة الشخصية لكل إنسان، مما يفقد الروح التساعدية والجماعية دورها أو يعطل بعض مفاعيلها، وفي هذا يقول السيد لوفيفر: « إن التعامل الاجتماعي في مجتمعنا يضيف إلى التناقضات القديمة ... تناقضاً جديداً ... وهو أن المجتمع هو في الوقت نفسه موحد ومفتت، إنه موحد بفعل الثقافة ... ولكن المجتمع نفسه مفتت لأنه يعزل الناس ويعزل الوظائف ويخلق من عزلات متعددة ... » .

### ( ٣ ) المدينة والمال

يحدثنا إيتين دلماسو، وهو أستاذ محاضر في كلية الآداب والعلوم الانسانية في ستراسبورغ، في بداية مقاله هذا فيقول: « إن المدينة، من أجل تسييرها وبنائها وتوسعها هي موطن لتوظيف رؤوس الأموال، ولكن المدينة، كقطب للنمو تستقطب سلطات اتخاذ القرارات ومن هنا يأتي دورها في تحركات الأموال » .

ومن هذا نستشف مدى العلاقة الوثيقة والتبادلية بين المدينة والمال، فهي عنصران لازمان لبعضهما البعض الآخر، فالواحد سبب ومسبب ودالة إنمائية فيها نغمة للآخر .

ثم ينتقل المؤلف ليحدثنا عن ارتفاع أسعار الأراضي الجنوبي الحاصل في فرنسا وغيرها من البلاد ليصل إلى القول « وأبرز نتيجة لاشتعال الأسعار هذا بالنسبة لسكان المدن هو ارتفاع حصة قيمة الأرض في الكلفة الاجالية للأبنية، وقد أصبحت تعادل الثلث وأحياناً النصف ... » . وهذا في الحقيقة كلام ينطبق على واقعنا خاصة في لبنان حيث هذا الارتفاع الأكثر من جنوبي في أسعار الأراضي، والذي أدى إلى زيادة كلفة البناء . وبالتالي إلى تلك الأزمة الحادة التي يعاني منها المواطن خاصة صاحب الدخل الذي لا يتناسب في نموه وصعوبة الحياة مع ذلك التصعيد المسعور في أثمان وإيجار المساكن والأراضي .

مدرسة الدروس العليا الفرنسية - في بداية مقاله هذا، عن ماهية المدينة، عن تعريفها ليصل إلى القول: «إن المدينة أداة تسلط وهي تصيح أداة اتصال بسلطة موجودة في مكان آخر».

ويقول في مكان آخر: «يُخَيَّل إلينا أن المدينة كانت وما تزال أداة التعبير السياسي، أي المكان الذي ينتخب السكان فيه بعضهم أو ينتخبون منهم ممثلين ليحكموهم ويمثلوهم في الخارج ويعتبروا بالقول عن آراء مواطنيهم الذين يمثلونهم».

في الحقيقة أن إمعان التحليل في هذا القول السابق يقودنا إلى الفكرة التالية، وهي: أن المدينة وإن لم تكن الوحيدة في كونها الأداة والواسطة للتعبير السياسي، فإنه في واقع الأمر يبرز فيها هذا التعبير بشكل أوضح وأكثر تجسماً من غيرها من وحدات أو تجمعات. فهي المكان الأنسب لتجمع وتلاقى وتجاذب الاتجاهات والأفكار المختلفة بشكل أكثر شمولية وأكثر تعبيراً وذلك لقدرتها على الاستيعاب.

وفي هذا تدليل على غلبة الطابع السياسي بشكله العام للمدينة، وعلى كونها وحدة سياسية، هكذا هي اليوم وستبقى كذلك في الغد، حيث سيكون هناك متسع من الوقت أمام السكان لممارسة العمل السياسي والديمقراطي تبعاً لإمكانية التقليل من أوقات العمل وزيادة أوقات الفراغ في المستقبل. وفي هذا يقول السيد شومباردي لو: «ولكن لنفترض أن أنبياءنا صادقون وأن الناس في عام ٢٠٠٠ لن يشغلوا أكثر من أربع أو خمس ساعات في اليوم، فحينئذ سيوجد عمل كاف للملء وقت الفراغ، ألا وهو العمل السياسي، لأننا إذا لم يكن لدينا حياة ديمقراطية حقيقية فذلك بسبب ضيق الوقت... إن الديمقراطية المباشرة بدون وقت هي أكذوبة».

ونحن نفهم هذا تماماً، إذا أضفنا: إن هذه الديمقراطية،

وفي الحقيقة قد يكون من أسباب هذا الارتفاع، بالإضافة إلى قانون ثبات العرض وارتفاع الطلب، هو أن هناك الكثير من المتمولين الذين يوظفون أموالهم في شراء الأراضي ورفع أسعار بيعها والتمسك بذلك وبالأراضي لحين حصولهم على مبالغهم وسعرهم المرتفع والمطلوب، ذلك أنهم موفورون مالياً، وهم ليسوا بحاجة إلى مال يضطروهم إلى البيع بسهولة وبسعر أقل من المطلوب. وفي هذا يقول مؤلف هذه المقالة: «لذا، فإن المتمولين الحائزين على وسائل مالية وافرة هم الذين يشترون الأراضي حول التجمعات الحضرية وبإمكانهم التمسك بأسعارهم، وقد بين السيد ديثان كيف أن مجموعات مالية كانت قد اشترت منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر أراضٍ في نيس وكل الشاطئ اللازوردي ولم تبعها إلا بعد عشرات السنين، وإذا وُجد ملاكٌ صغار فإنهم يتبعون الملاك الكبار...».

وفي هذا نرى كيف أن أصحاب الأراضي يتبعون في تسعيرهم لأرضهم أعلى سعر يباع ضمن منطقتهم، إلا أنهم في الحقيقة - وهنا المشكلة، وهذا ما نراه واقعاً - يزدون عليه أيضاً مما يسبب هذا الارتفاع الجنوني في الأسعار.

وإذا انتقلنا إلى مكان آخر من مقالة السيد دلماسو، نراه يقول: «إن نبل الوظيفة المالية التي تسجل نفسها في قلب المجتمعات الحضرية تدل دلالة واضحة على أن تحركات الأموال تأتمر بأمر المدينة...».

وفي هذا نستشف مدى تأثير وسيطرة المدينة على وسطها الجغرافي، فهي في الحقيقة مركز تجمع الأموال ومركز تحركها، ففيها المصارف والمؤسسات والتجمعات المالية على أنواعها، وحيث من هذه المؤسسات المختلفة تنطلق التحركات المالية التوظيفية إلى شتى المجالات لتصل حتى إلى حد التأثير على خارج المدينة ذاتها.

#### ( ٤ ) المدينة كوحدة سياسية

يتساءل الأستاذ شو مباردي لو - وهو مدير دروس في

في الماضي والحاضر وفي المستقبل، مجالها الأرحب هو المدينة .

## ( ٥ ) هندسة معمارية أم بناء ؟

في حقيقة الأمر هناك التباس اليوم بين مفهومي الهندسة المعمارية والبناء، بحيث إن معنى البناء له دلالة الهندسة المعمارية . وإننا اليوم أقرب إلى البناء - الذي يهتم في بناء أكبر عدد ممكن من البيوت والأحياء وما شاكل من وحدات، دون أي التفات إلى أي شيء سوى الكمية والربح - منّا إلى الهندسة المعمارية الحقّة التي هي إيجاد أمل في حياة أفضل، والتي هي بناء المدينة الشاعرة والحي الرومنسي والبيت الذي كله شعور والذي يحلم فيه ساكنه ويحقق فيه بعض أحلامه .

وفي هذا، نرى المهندس المعماري جورج كاندليس - مؤلف هذا المقال الذي بين أيدينا - يقول: «إن الهندسة المعمارية والبناء شيان مختلفان كل الاختلاف، فالبناء هو الكمية (بناء ألف بيت، كذا من الأمتار المكعبة، كذا من الأمتار المربعة) . أما الهندسة المعمارية فهي إيجاد أمل في حياة أفضل، لذا أعتقد أننا نسيء استعمال هذه العبارة حينما نسمي أنفسنا مهندسين معماريين، إننا لسنا سوى بتّائين .» ولو حللنا هذا القول لوجدنا ما يلي:

أ - إن المهندسين المعماريين ومموليهم لا يهتمون إلا بالكمية، وهي مقياسهم الوحيد (كم من البيوت، كم من المال، كم من الوقت) وبالتالي لا ينظرون إلّا إلى الربح في كل ذلك .

ب - إن النوعية بمنظورها الواسع والعام، والتي هي مطلوب الهندسة المعمارية الحقيقية . غير ملتفت إليها، فنحن لسنا في عصر النوعية بحيث إن المهندس يعتبر عبقرياً إذا بنى ألفاً أو عشرة آلاف من المنازل، أما ذلك الذي لم يبن سوى بيتاً واحداً عالي النوعية، فيه يحلم الإنسان ويحقق أحلامه ويعيش في رومانسيته الخاصة، فإنه يعتبر شخصاً عديم الأهمية .

إن واقع الأمر يتطلب منا إذن الالتفات إلى شيء آخر غير الكمية، وفي هذا يقول السيد كاندليس: «إن ما ينقصنا في مدينة اليوم هو الشعر» . وفي مكان آخر: «المدينة والإنسان هما شيان متكاملان، فالمدينة بدون الإنسان ليست شيئاً والإنسان بدون المدينة ليس سوى شبح» .

إن النظر في هذه الأقوال يجعلنا ندرك الحقيقة المرة التي يعانيها إنسان هذه المعمورة، وبالأخص إنساننا العربي، حيث إنه يتم البناء في كل مكان دونما اكتراث إلى حقيقة شعور الإنسان ودونما التفات إلى المحيط الحضري الذي يجب أن يحسب له الحساب . إن المدينة والحي والشارع والبيت يجب بناؤهم بحيث يشكلون أمكنة يعيش بها الإنسان لكونه إنساناً، وليس لكونه جامداً لا حس له . وتأكيداً على هذه الانسانية والشاعرية، يقول كاندليس: «بدأوا يفهمون أنه إذا كان من الضروري لتنشئة المهندس المعماري معرفة قوانين التركيب والسكون، وهي قوانين أساسية في علم الهندسة فإنه من نفس الأهمية معرفة قوانين علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الحياة، وغداً قوانين الفيلسوف وبعد غد قوانين الشاعر» .

## ( ٦ ) المدينة والمنطقة

«ويمكننا أن نمثل بصورة حسية مختلف العلاقات بين المدينة والمحيط المجاور بنسيج عنكبوت ضخمة يكون قلبه المدينة، ويشكّل الفضاء المجاور والممتد حوالها، يشكل الإقليم» .

في هذا القول لمؤلفة هذا المقال السيدة جاكلين بوجو غارونيه - الأستاذة في المعهد الجغرافي بجامعة باريس - تأكيد على أهمية المدينة بالنسبة لمحيطها، وكيف أنها تكون المركز الأساسي بالنسبة للمنطقة التي توجد بها، سواء من الناحية الطبيعية أم الاقتصادية أم الانسانية .

وفي الحقيقة، أنه حينما نتحدث عن المدينة ومنطقتها أو محيطها يبرز السؤال التالي: ما هو المدى التأثيري والتبادلي

في أي ميدان من الميادين، وبالتالي فهو كذلك في الأعمال البنائية الانمائية سواء للوسط أم للمدينة.

## (٧) المسألة العمرانية وتمهيد أراضي البلاد

«تمهيد البلاد هو زرع الموارد والسكان، بصورة متناسقة في جميع أنحاء البلاد». إن سياسة التمهيد هذه هي رد فعل على التمرکز الصناعي والحضري الذي تستحوذ به بعض المدن أو المناطق دون غيرها. إنها العمل على مكافحة الجذب الهائل الذي تمارسه بعض المدن كالعواصم. وإنه لا بد من القول هنا، إن التركيز في هذه السياسة اليوم ينصب أكثر ما ينصب على تصحيح التباين الاقتصادي وإمداد بقية المناطق بمفاعيل التنمية. ولا بد من القول أيضاً بأن الخبرة المحصلة أثناء تطبيق هذه السياسة أدت إلى تبيان الحقيقة التي تقول بأنه في هذه السياسة، «لا يمكن توزيع جهود الاستثمار كما يرش الفلفل على الطعام، ولا يمكن تشتيت الأعمال الإقليمية بل يجب التأثير على بعض النوى المحركة بأعمال قوية شديدة التأثير».

وهذا معناه، أنه حيناً لا يستطيع تنمية جميع المناطق بما فيها من مدنٍ وقرىٍ وغير هذا من تسميات، في آن معاً ودفعاً واحدة، فإنه من الأنسب اتباع سياسة الاختيار المدروسة، وفي هذا فإنه في محاولة محاربة هذا الجذب الهائل للعواصم المراكز، والتي تقوم به على جميع الصعد، لا بد من العمل المراكز وغير الباهت والاختيار في المدن الأخرى، حتى تقف هذه الأخيرة في وجه العاصمة، وإن إنماء هذه المدن والتي هي نواة أقاليمها لا بد أن يؤثر على هذه الأخيرة خيراً.

ويحدثنا كاتب هذا المقال، وهو جورج لافو - الأستاذ في كلية الحقوق والعلوم الاقتصادية في باريس - عما يجب أن يؤمنه المركز الإقليمي، فيقول: «فالعاصمة الإقليمية يجب أن تؤمن لإقليم واسع... جميع إمكانات القطاع الثالث والقطاع الرابع أي جميع التجهيزات الكبرى

بين المدينة ومحيطها، خاصة من الناحية السكانية، وبالتالي الاقتصادية؟. والجواب على ذلك يتعلّق أو يتحدّد على ضوء كل مدينة بحد ذاتها. وفي هذا، تقول غارنييه: «فمن هنا نستطيع تحديد منطقة التأثير المدنية بصورة تقريبية، ففي الحقيقة أن المساحة الممتدة التي تحيط بالمدينة هي، بصورة عامة، مرتبطة بها بواسطة موجات السكان التي ترسلها باستمرار نحو المركز والتي تحتفظ، في الأرياف أو المدن الصغيرة المجاورة، بارتباطات عائلية أو بيت ريفي أو ببعض الأراضي والتي يمكن أن تجيء إليها لقضاء قسم من إجازاتها أو تنسحب إليها متى انتهت فترة نشاطها». وتضيف السيدة غارنييه: إن هناك عاملاً آخر هو الهجرات اليومية، كتقلّلات الأيدي العاملة. هذه التقلّلات وهذه العلاقات الانسانية تنشئ علاقات أخرى هي الاجتماعية والاقتصادية بشكلها الواسع، والتي هي تبادلية أيضاً بين المدينة ووسطها أو محيطها.

وتقول المؤلفة في مكان آخر: «وهكذا فإن الآلية التي تربط التنمية الحضرية بالوسط الذي يحيط بها ليست أمراً واقعاً فقط، بل يمكن استخدامه كوسيلة من وسائل التنمية. إننا نتكلّم كثيراً عن عمران المدن وعن تنظيم العمران، ولكن يجب القول إن هذا النمو الحضري مرتبط مباشرة بتنمية الأوساط المجاورة وإنه يمكن توقع مدن جبارة، ويمكن إنشاء أبنية فخمة، ويمكن تحسين حياة سكان المدن، ولكن يجب بذل جهد لتنسيق ذلك مع الاقليم المجاور». في هذا القول، نرى وجوداً لمقولة اقتصادية ونرى أنه قول حق للأسباب التالية:

أ - إن التمدينية بمفهومها الواسع لا تعطي مفعولها الكامل والمطلوب إلا إذا تطابق ذلك مع عمل تحضيري تحسّيني للوسط الذي توجد به المدينة. فكلّما كان الوسط متقدماً كلما استفادت المدينة من ذلك لينعكس هذا على المحيط أيضاً.

ب - إن التنسيق بين الجهود المبذولة مطلوب ومستحسن

( كالمطارات الدولية مثلاً ) وجميع التجهيزات الإدارية الكبرى، وجميع التجهيزات الثقافية الكبرى، وجميع التجهيزات المصرفية الكبرى، وبعبارة مختصرة مدينة تستطيع أن توفر على أهالي وسكان منطقة غير محددة مشقة التوجه إلى باريس » أو أية عاصمة للبلاد .

إن تحليلنا لهذا القول السابق يؤدي بنا إلى الفكرة الإنمائية التي تقول بصورة العمل، خاصة في بلاد العالم الثالث، على بناء وتنمية المدن الإقليمية، بحيث نجعلها تؤدي الخدمات والأعمال والوظائف التي يمكن أن تؤديها العواصم المركزية للبلاد . وهذا نتغلب على هذه المشكلة الصعبة التي نعانيها نحن أبناء البلدان السائرة في طريق النمو، وهي الهجرة الواسعة من الأقاليم والمناطق إلى العواصم المركزية للعمل والاستقرار فيها، مما يجعلها تنفجر بسكانها؛ ومما يؤدي في البلاد غير النامية والفقيرة عادة، إلى عجز بعض المرافق فيها، من مثل ( مياه، نظافة، سير... )، والتي هي مبنية أصلاً لعدد من السكان معين، وهي تستقبل الآن عدداً أكبر وفوق طاقتها .

## ( ٨ ) المدينة والسيارة

السؤال المطروح هنا من قبل كاتب هذه المقالة بيير جوج - الأستاذ في المعهد الجغرافي بجامعة باريس - هو قضايا السير والتوقف من جهة واستيعاب المدن لذلك من جهة أخرى . إنه هذا النمو المتزايد في عدد السيارات التي تسير في شوارع المدن، ذلك النمو الذي نسبة تطوره تفوق بكثير نسبة تطور وتزايد تلك الشوارع .

إن أسباب هذا التصاعد عديدة منها سَنَّة التطور ذاتها، ومتطلبات الاقتصاد الحديث، ومنها ما هو اجتماعي حيث يُعتبر امتلاك السيارة هدفاً تسعى إليه الأسر وجيل الشباب .

يحدثنا كاتب المقال - وذلك في تحليله لبعض أسباب عدم الاستيعاب المدني للسيارات - فيقول: « إن أوروبا كان

فيها مدن كبيرة وكبيرة جداً، صُممت على جهل تام بحاجات سير السيارات لأنها صُممت قبل عصر المحرك والسيارة، مدن مزدحمة جداً، كثيفة جداً متلاحقة جداً، لأن القائمين عليها اقتصدوا من الفراغ المعد للسير لأسباب متعددة » .

وفجأة وجدت هذه المدن المزدحمة نفسها أمام التزام بضم السيارات إليها . فأصبحت كأنها غير نافذة لسير السيارات، فكان هم المسؤولين عنها هو العمل على تنشيطها وتحديث طرقها وتوسيع شرايينها ما أمكن، وبكل أسلوب، بمتناول اليد، مدروس، مع إمكانية المحافظة على القيم التاريخية لهذه المدن ومبانيها .

ومن باب شرح المشاكل التي يمكن أن تحدث نتيجة عدم مسايرة شوارع حي ما لعصر السيارة، وما يتطلبه، يحدثنا بيير جوج فيقول: « والحق إن الوصول إلى المخزن أو المكتب الواقع في هذا المركز ( المركز التجاري في المدينة أو قلبها ) أصبح متعذراً أي أن هذا المركز... أصبح الآن واقعاً في طريق مسدود بالفعل، طالما أن قاصده الذي هو دائماً صاحب سيارة، لا يستطيع الوصول إليه » .

إن من نتائج ذلك هو انتقال مؤسسات هذا المركز إلى أحياء خارجية، يسهل الوصول إليها بالسيارة . وهذا إن أعملنا به تحليلاً ومقارنة مع حالة بعض أحياء الأعمال والأحياء العادية في مدينة بيروت مجالته الحاضرة، يجعلنا نرى صورة واضحة لمآل هذه الأحياء في المستقبل، بل لمآل بيروت كلها . إننا لا شك نرى منذ الآن بداية الهروب من بيروت وأحيائها، الهروب من الاختناق المميت لحركة السير التي لم تحل إلى اليوم .

من ضمن الحلول التي لُحِجَ إليها حل مسألة الاختناق في حركة السير، نرى كاتب المقال يحدثنا عن حل قامت به السويد، يقضي بإيجاد أماكن على عتبة أماكن الازدحام، يمكن للمرء أن يوقف فيها مركبته مجاناً مع تيسير الانتقال منها إلى العمل بواسطة جهاز من النقل المشترك يكفل



المواجهة كلياتها هنا وهناك، « فكثيراً ما كانت المؤسسات الجامعية تجد نفسها مبعثرة بحسب صدف الأراضي المتاحة » أو غير ذلك من أسباب؛ فوجد كلية العلوم في جهة وكلية الحقوق في الجهة المعاكسة. وهذه حالة بقية الكليات.

هذه الصورة للجامعة المتفرقة الكليات في أنحاء عديدة من المدينة، يعمل المسؤولون على حلها كما تحدثنا سالفاً، بإنشاء المدن الجامعية في خارج المدينة؛ وهنا يحدثنا مؤلف هذه المقالة: « بأن المسؤولين لم يدركوا أنه يجب تعزيز الصفات الحضرية للمؤسسات الجامعية حينما تخرج من المدينة، وذلك للتعويض عن الوجود في المدينة، فهو، أي السيد ينشمل، يريد ألا ينتزع البناء فقط من المدينة، بل يجب أن يلحق به محيطه الذي هو ما تقدمه المدينة من خدمات وتسهيلات، ذلك أن نقل البناء فقط يجعل من المدينة الجامعية مدينة بلا روح أو أن ساكنيها سيكونون بحاجة دائمة وربما يومية للنزول إلى المدينة للتعويض عن النقص الحاصل في المعسكر الجامعي. وهذا النزول يستحق بذل مزيد من الوقت لا فائدة منه، ولو وقَّره الطالب أو الأستاذ الجامعي لكانت الاستفادة منه أكثر. كما إن هذا الانتقال يجعل نفس الطالب أو المحاضر أقل انسجاماً أو استقراراً. وكلنا يعرف مدى أهمية أن يحس المرء بالانسجام والاستقرار. وإن مسألتي تنظيم العمران وتنظيم الجامعة هما من المسائل المترابطة، والتي تعمل في سبيل تنظيم العلاقة بين الجامعة والمجتمع، خاصة الطالب؛ بحيث يؤدي إلى جعل المدينة الجامعية مدينة مقبولة من الجميع ومرغوباً السكن فيها من قبل أعضائها من الطلاب والأساتذة والعاملين فيها. هتان المسألتان (تنظيم العمران والجامعة) تنظران إلى روح الشيء بقدر ما تنظران إلى مادته (أو هكذا يجب أن تعمل)، إنها يتطلعان إلى أكثر من إعطاء مادة دراسية، يتطلعان إلى تربية الطالب وتأهيله أيضاً في مجتمعه، وتعويده على ترك حياة العزلة والانطلاق بعيداً عن الانطواء.

السهولة والانتظام والكفاية والراحة. وفي الحقيقة، إن هذا الحل يمكن أن يؤتي ثماره الجيدة أيضاً في مدنها العربية المزدحمة، لو عمل المسؤولون فيها على تطبيقه. فهو يخلصنا من زحمة السيارات واختناقاتها، ويخلصنا من أشياء عديدة منها التأخير في المواعيد والأمراض العصبية الملزمة لانسدادات السير. كما أن إقامة المدن الجديدة المنظمة والمخططة لكي تستوعب حاضراً ومستقبلاً تطوراً ونمو عدد السيارات المتزايد هو من الحلول الناجعة أيضاً، فحبذا لو يعمل بها في بلادنا العربية التي لا تنقصها الوسائل إن أرادت.

## ( ٩ ) تنظيم العمران والجامعة

إن مسألة إيجاد الأرض لبناء الكليات الجامعية عليها، وخاصة تلك التي يستلزمها تطور الأمور، وقيام المدينة الجامعية من المسائل الصعبة التحقيق في المدن، نظراً لقلة الأراضي أولاً: ولأن الكلية المبنية هنا أو هناك قد تكون محاطة بأبنية سكنية أو مكاتب للعمل، أكثر مما تكون محاطة بأراضٍ فراغ صالحة لبناء هذه الكلية أو تلك، أو هذا البناء المخصص للجامعة، أو ما يماثلها. لذلك تلجأ الدول العصرية أكثر ما تلجأ إلى بناء هذه المعسكرات الجامعية في خارج المدن حيث تجد ما تشاء من الأراضي المرادة. وفي هذا يحدثنا فيليب ينشمل - الأستاذ في المعهد الجغرافي بجامعة باريس، وهو مؤلف هذه المقالة - فيقول: « مسألة إيجاد أرض يمكن التصرف بها بسرعة كانت في أساس الاختيار الذي جرى لخلق المعسكرات الجامعية (المدينة الجامعية)، لقد بُحث في خارج المدن عن أراضٍ واسعة، أراضٍ لا يُحتاج إلى إجراء معاملات طويلة ومعقّدة لاستملاكها، أراضٍ ليس لها عشرات المالكين... ».

مقابل هذه الصورة للمدينة الجامعية الموحدة، جد - وهذه حال أكثر الجامعات المتواجدة في المدن (وخاصة بعض جامعاتنا العربية وبالذات اللبنانية) - صورة الجامعة

وبصدد العلاقة بين المدينة والجامعة، وهل من المفضل أن تكون داخل المدينة أو خارجها، فإن مؤلف هذه المقالة يفضل أن تكون في داخلها وإن لم يستطع ففي أي طرف منها، ذلك لما للأثر التحضيري والتمدني الذي تركه في المدينة. ويجب « وضع الجامعة في أول أرض متاحة ولكن بحيث تكون عنصر تنمية للمدينة عنصر توسع لمركز المدينة ».

إن ما قاله السيد ينشمل شيء يؤيد، وذلك في حالة وجود إمكانية ذلك الانشاء في المدينة، إلا أنه يجب القول هنا، إن إنشاء المدينة الجامعية في خارج المدينة له مفاعيله الخيرة أيضاً، والتي منها تطوير وتحضير المنطقة التي تتواجد فيها، لذلك فإنه لا يجب مماشاة السيد ينشمل تماماً في فكرته الأخيرة تلك، بل يجب النظر فقط إلى إمكانية التوفيق في بناء الجامعة - المدينة، التي تؤهل ساكنها على أن يكون جديراً بإنسانيته ويعلمه بقدر ما الانسانية والعلم جديران به.

## ( ١٠ ) المنعزلات الأميركية

المنعزل في تعريفه هو مكان محدود جغرافياً، وفي داخله يشعر ساكنه أنه في بيته أما في خارجه فيشعر أنه غريب وعند الآخرين، سواء لم يقبل الآخرون بمعرفته أم شعر هو نفسه بأنه مختلف عنهم. إنه ذلك الحي الذي، عندنا، تسكنه طائفة معينة أو مجموعة من الناس لها عاداتها وتقاليدها المشتركة ولها حياتها الخاصة وهي غير منسجمة مع غيرها من المجموعات الأخرى. ولنعطى مثالاً على ذلك، المنعزل اليهودي في أغلبية بلدان العالم، والمنعزل الأسود، والمنعزل الصيني في الولايات المتحدة الأميركية. وفي العموم منعزلات الأقليات والطوائف في أكثرية بلاد المعمورة.

إن للمنعزل في الولايات المتحدة الأميركية تاريخاً، وإنه لعب دوراً في خلق المجتمع الأمريكي. إن المدن الأميركية، وخاصة نيويورك وبوسطن « استقبلت

الموجات العديدة من المهاجرين الأوروبيين والمتوسطين، وقد وصل هؤلاء السكان بالملايين في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكانوا في أشد حال من الفاقة... وبالطبع لأسباب لغوية واقتصادية أيضاً، تجتمعوا في أحياء مختلفة بحسب جنسياتهم، فتشكلت المنعزلات بصورة عفوية. في هذا القول لمؤلف هذه المقالة فيليب سيجورنيه - الأستاذ في كلية الآداب والعلوم الانسانية في نيس بفرنسا - إشارة تاريخية إلى كيفية البداية في تكوين المنعزلات الأميركية، والتي لها خصائص عنصرية ومحاطة بمواجز لغوية ودينية، طبعاً إن جيل المنعزلات الذي لم يتعلم أسلوب الحياة الأمريكي المشترك سيظل يحتفظ بتقاليده وعاداته ولغته إلى مدى من الزمن، يطول أو يقصر، حين تكون ذلك التمثل الذي يحصل مع مرور السنين.

إن القبول والتمثل قد يكونان سهلي التحقق، وقد يكونان عكس ذلك تماماً، فها هم المهاجرون الألمان مثلاً قد قبلوا وتمثلوا بالحضارة الأميركية المشتركة، وها هم السود ما يزالون يرفضون ولا يستطيعون، نتيجة لذلك ولأسباب أخرى، الانطلاق نحو ذلك التمثل الصحيح، وبالتالي فإن التقوقع المنعزلي ما يزال قوياً لدى السود بعكس المهاجرين البيض إلى أميركا، والذين استطاعوا فيما بعد الانفلات من منعزلهم والسكن والاندماج مع بقية فئات الشعب الأمريكي، ومع بعضهم، وبالتالي تشكيلهم مع غيرهم من الفئات لعقلية ثانية غير تقوقعية.

بالنسبة لمصير المنعزلات، خاصة الفقيرة والمعدمة، وبالذات في الولايات المتحدة كالمنعزل الأسود، ما هي طرق التخلص من حالة البؤس والشقاء لهذه المنعزلات، وما هي طرق الانفلات من المنعزل المحبس؟

يقول مؤلف هذا المقال: « في حين يستمر البناء الحكومي أو المعان، يعاد بناء المنعزلات ولو جزئياً، وتنتج المساكن ذات الأجور المعتدلة نفسها لتصبح جزءاً من المنعزلات، منعزلات أكثر رفاهية ولكنها مكتظة بالسكان

الذين يتزايد بينهم عدد الملوّنين » .

جهاز آلي لا بدع محلاً للانسان الاجتماعي .

ومعنى هذا أن الحكومة والمسؤولين الأميركيين يعملون على تحسين وضعية المعزل، وهذا عمل حسن؛ ولكن الأحسن هو القيام بإدماج الملوّنين في المجتمع كله، وهذا يتطلب تنفيذ سياسة خاصة، ربما يستطيع الملاحظ أن يرى بعضاً من خيوطها الخجولة يُعمل على تنفيذه في الولايات المتحدة الأميركية اليوم .

### ( ١١ ) المدينة الصحراء

هناك ظاهرة مؤداها أن المدن اليوم، ولو زاد فيها عدد الناس، فعدد المرتبطين بها، برابطة ما، غير واجب العمل وطلب الرزق، يتناقص . هناك شعور ما لدى الانسان اليوم، يلاقيه من المدن ويحسه، وهو ما يعبر عنه مؤلف هذه المقالة موريس ليلانو - الأستاذ في معهد الجغرافيا في جامعة ليون بفرنسا - « بصحراء النفس »، تدليلاً على عدم الرضى وعدم وجود ذلك الاحساس الشعاعي تجاه المدينة من قبل ذلك الانسان . وفي هذا يقول ليلانو: « لقد ماتت روح المدينة بنسيانها لطبيعتها الحقيقية وهدفها » .

تأكيداً لهذا القول وبالتالي تحليلاً له، يمكن سرد ما يلي:

أ - هناك، في المدينة العصرية اليوم، تحولات سكنية ضخمة أتت على الصفة الشخصية للسكن وجعلته مأوى للنوم فقط .

ب - إن التجارة، والتي فيها حياة وروح للمدينة، أصبحت تنحو اليوم نحو الابتعاد عن المدن لتتجه نحو الأماكن التي يسهل للسيارات الوقوف بها، وهي تلك المساحات الخالية من محيط المدينة، حيث تعلق سهولة إيجاد موقف للسيارة على الصفة التقليدية التي هي وجود الثقة بين البائع والشاري، الذي قد يكون الجار القريب من المتجر .

ج - الصخب والضوضاء التي جعلت المدينة تفرغ من ساكنها - الانسان الشاعر، وهذا المسبب هو نتيجة انتقال المدينة العصرية أو الحاضرة من كونها جهاز عضوي إلى

د - إن من نتائج سير السيارات وازدحامها، وبالتالي اختناق حركة السير، هو استحالة أوقات الفراغ لأنها أبطأت إلى درجة كبيرة الحركات المتناوبة نحو العمل ونحو الراحة . إن السيارة تستهلك جانباً كبيراً من الفراغ الذي يحتاجه الانسان لراحته .

وما تم سرده سابقاً، وما يمكن سرده كثير أيضاً، يكفي لتكوين فكرة واضحة عن صحراوية نفس ساكن المدن . وللتأكيد على هذه الصورة، ونتيجة للتحويلات القائمة في المدينة يسرد لنا ليلانو أنه « في السويد حصلت حالات كثيرة من الانهيار العصبي لدى النساء بسبب قيام المخازن الكبرى الذي يحرم المرأة من أحد مباهجها، إن لم نقل من أحد اختصاصاتها: جس الأساك وشراؤها من بائع السمك، شراء الخيطان من بائع الخيطان، مشاهدة المفاجآت أينما سارت في الأسواق على طول الشارع التجاري؛ أية خيبة تصيب المرأة حينما لا تستطيع على الأقل اجتياز الشارع لمتابعة حلم المشتري » .

إن كان هذا قد حصل ويحصل في السويد للأسباب المشار إليها آنفاً، فما بالنا نحن في لبنان، الرجال منا قبل النساء، حيث أينما تلقّتنا - وفي بيروت خاصة - نجد ما يثير الأعصاب ويقتلها . هنيئاً للسويديين لأن مشكلتهم بسيطة جداً، وويل لنا نحن في لبنان لأننا في معمعة المشاكل الصعبة .

### ( ١٢ ) المدينة في شعر زماننا

يبدأ كاتب هذه المقالة ادوار غايد - الأستاذ في كلية الآداب والعلوم الانسانية في نيس - بالقول: إنه « يمكن اعتبار زماننا الزمن الذي أخذ فيه موضوع المدينة يلعب دوراً رئيسياً في الشعر » .

ثم يختار المؤلف بعض الشعراء الذين تكلموا في المدينة أو أدخلوها في أبياتهم؛ سنأخذ منهم هنا اثنين فقط،

يُستَدان في الحقيقة النظرات إلى المدينة، وهما بودلير وويتان .

يحدثنا كاتب هذه الخاتمة اندريه نوشي - الأستاذ في كلية الآداب والعلوم الانسانية في نيس - عن الشخص القادم من الريف إلى المدينة وكيف تبتلعه أكوأخها التنكية ومنعزلاتها، ويقول بأن هذا هو الوجه الخلفي للمدينة المبنية على المال والمخلوقة بالمال، وإن الأحياء الجميلة لها دائماً زنازها الأحمر أو مدنها التنكية. ويضيف: « إن التناقض بين هذه وتلك لا يمكن أن يؤدي إلاً إلى نضوج الثورة »، الثورة التي تقوم من أجل تغيير واقع ألم أو غير إنساني ومن أجل الوصول إلى عالم أفضل .

وفي هذا إشارة إلى العلاقة التي بين الثورة والمدينة حيث في هذه الأخيرة تجد الثورة مقوماتها الأكثر دفعا، وحيث صور الواقع الألم تكون أكثر تجسماً .

وينتقل السيد نوشي ليتكلم، بعد ذلك، عن شبكات الاتصال والمال والنفوذ في المدن وما بينها وبين العالم .. يشير إلى استقطاب هذه المدن وتركيز هذه الشبكات فيها ومروها بالتالي منها وفيها، فيقول: « وترتبط المراكز المدنية بشبكة دقيقة تصل بينها: من هذه الشبكة يمر المال والقرارات (من جميع المستويات سياسية واقتصادية) منها تمر الاتصالات (جوية، هاتفية، برقية، راديو)، إليها تصل أنباء العالم الواسع حيث ترجم وتغذي الصحف التي تطبعها المدينة » .

كما أنه بالإضافة إلى هذه الأهمية الشبكية، هناك التأثير الثقافي للمدينة؛ إنها تثقف وتهذب. وللثقافة والتهذيب هنا المعنى الواسع، والمدينة - كما يقول السيد نوشي - مفتوحة للتأثيرات الخارجية، فهي إذن تحاكم وتقرآن ما هو موجود هنا مع ما هو موجود هناك. وفي هذا إشارة إلى الدور الهام للمدينة، والذي تنفرد به دون غيرها في عملية التطور والتطلع على العالم والانفتاح عليه، لتأخذ منه وتعطيه؛ وبالتالي ليم التبادل في كل شيء، التبادل الذي هو عنصر هام في عملية التقدم .

المدينة عند بودلير، هي موطن الفوضى والقبح والبؤس والضوضاء والقرف وخصائصها الدائمة عنده هي الوحل الذي يغمر كل أشكالها والضباب الذي يحو كل ملامحها .

لا شك، أن هذه نظرة سوداوية للمدينة من قبل بودلير، وما نعتة بها نستطيع أن نقول عنه فقط بأنه شيء من حقيقة وليس كل الحقيقة. ذلك أنه في المدينة يوجد الخير كما يوجد الشر ويوجد الجميل كما يوجد القبيح ويتوافر الأبيض كما الأسود .

نعم إنه شيء من حقيقة، حينما يقول بودلير واصفاً المدينة - وهو يلقي نظرة على باريس من أعلى هضبة مونمارتر -:

« حيث يمكن تأمل المدينة بكامل سعتها

مستشفى، ماخور، مطهر، جحيم، معتقل،

والشيء الآخر للحقيقة الذي غاب عن نظر بودلير هو أن هناك في المدينة أيضاً صحة، وهناك عمل خير وفضيلة، وهناك نعيم، وهناك حرية .

هذه النظرة المشائمة عند الشاعر الفرنسي، لا نراها عند ويتان الأمريكي، فالمدينة عند هذا الأخير ليست متاهة البذخ وجهن الملذات، بل مجموع أنشطة مرتبطة؛ يغني بدقة المحب تعدد أشكالها وإشاراتها وطقوسها غير مفرق أبداً بين المدينة والريف، فها هو يقول، في ما يشاهده في المدينة وفيها:

« المغنية الطاهرة تغني على نغمات الأرغن

والنجار يسوي خشبته، وحديد المقشطة

يزقزق في صفيح حاد يرتفع .

والأولاد المتزوجون والعازبون في الطريق نحو

البيت الأبوي للاشتراك في عشاء المأم . »